حديقة الذكرى

(للكاتب الفرنسي جي دي موباسان)

الأستاذ زكريا أحمد قليبو

قال جون بربدالي: لقد خانني الحظ قليلا .

قضيت زمنا طويلا في أيام العزوبة شاهدت فيها حربا شعواء استطعت خلالها أن أكون واسع الخطى فوق أجساد الموتى دون شفقة ولا رحمة، وذلك دأب الطبيعة البهيمية، فقد لمت حقائق جلية وآلام غامضة وخيانة خفية كانت سببا في اثارة هذا العالم وبلبلة أفكاره حيث فتح هذا الباب السرى على مصراعيه لتقاسي فيه ما قد قدر أن يكون. إنه لأمر جلل وخطب مدلهم وداء عضال أخذ يزداد تعمقا وتشبثا فكأننا نستحق هذا الجزاء فلا وزر من لسع هذا الشوك وقد ازداد التشبث واضطرمت النيران ووضعت الحرب أوزارها ما جعلنا نهذى كهذيان الممسوس، وصارت الأرواح تحوم فوق الأجساد تئن وتتألم، فساد الحزن البلاد وكدنا خلاله أن نفقد وعينا واحساسنا لولا أن رضنا قلوبنا على مقاومة هذا التيار الجارف الخطير وتحطيمه .

أجل، لقد نجحت تلك المقاومة، وإنها لصورة باهرة من صور الحياة .

ويجول في خاطري شيئان يؤثران في احساسي العميق لولا أن العاطفة قد تخفف عني شيئا من هذا التهيج والانفعال السريع، وسأسرد لك شيئا واحدا من هذين، وهو حادث خيالي قد انطبع في مخيلتي وطالما يعاودني كأنه حصل لي بالأمس .

انني أتجاوز الخمسين من العمر ولقد كنت يومئذ شابا في ريعان الشباب ينتابني شيء من الأسى والأرق وكثير من أحلام الشباب التي كانت تنجب مع الرياح .

لقد شغلني ملهى كان يتألق بغاداته الحسان حيث كنت كثير التردد عليه .

وهذه الحياة على ما يكتنفها من غموض حافلة بالجمال وأي جمال. الجمال الذي لا يسير على أسلوب واحد، بل الذي يتغير باستمرار .

وفي يوم من الأيام نهضت باكرا وأخذت أتجول في حديقة الأطفال في لوزمبرغ، كانت تلك الحديقة جد جميلة على رغم تقادم عهدها، يكتنفها سور مزركش بديع التركيب يتوسطها صفان منفصلان على خط واحد من الأشجار التي شذبت أوراقها بانتظام وتحف بها الأزهار على أنواعها المختلفة، تلك الأزهار التي تفتقت أكمامها كأنها تبتسم للحياة، فحياها الندى بقطرات انتثرت عليها كأنها الماس لمانا، فيالها من حديقة غناء يطيب التنزه فيها والجلوس تحت ظلال أفنانها، وكان أحد أركانها يغص بخلايا النحل المصنوعة من القش والتي تنفصل عن بعضها بمسافات متباينة حيث تنفذ الشمس من ثقوبها الصغيرة ويعطر أريجها جميع أرجاء الحديقة، والنحل تحلق فوق تلك الخلايا ولها دوي مستمر، وعمالها يخضعون لأمر سيدتهم مسالمين في أعمالهم، وذلك مثل أعلى في منهاج الحياة .

ولشد ما دهشت لمنظر الحديقة الخلاب فصرت أختلف إليها في أغلب الأحايين وخصوصا في الصباح، وأجلس حيث يطيب لي الجلوس أطالع بعض الكتب . فتغمرني النشوة وتدور في رأسي الأماني الحلوة التي يهفو لها قلبي الظامىء إلى رى من طمأنينة فأرى خلالها الوجدان اليقظ والانفعالات النفسية الجياشة بالعواطف السامية والمثل العليا، وبينا أنا غارق في تلك الأحلام إذ رمقت خيالا يقترب من مدخل الحديقة فأدركت بأنني لست الرجل الوحيد الذي يتردد إليها، فنهضت من مكاني لأتحقق من هذا الخيال وإذا به رجل مسن ينتعل حذاء فضي اللون ويرتدي لباسا أحمر ضاربا إلى الصفرة قليلا، وعلى رأسه قبعة من الصوف يبرز منها زغب كالريش، هزيل الجسم مقطب الوجه تنم عليه أمارات الكبر، وعيناه متوقدتان كأنهما تنظران بحذر شديد، وبيده عصا مزخرفة مقبضها من ذهب تدل على أنها تذكار قديم . فاسترعى انتباهي ذلك المنظر، وبدا السرور على محياي . فاسترقت الخطى خلف

جدار تغطيه أوراق من الشجر، وأخذت أراقبه من كثب .

وحدث في صباح يوم من الأيام أن التقينا في المكان نفسه ، فقبعت تحت شجرة متسترا بأوراقها ، وقد اعتقد في نفسه أنه الوحيد في هذا المكان ، فبدأ يشير اشارات واحدة تلو الأخرى تنم عن أسرار متعارفة ، وأعقبها انحناء وقفزإلى الأمام قليلا ، ثم عاد إلى مكانه محتفظا بمركزه ، وأخذ يترنح كأنه وريقة غصن ينفخها النسيم ،فدهشت من هذا الرقص الشاذ المرلى، ثم أعقبها بحركات قوية فوق طاقة جسمه الهزيل كأنه ألعوبة من الورق تطيرها الرياح أنى تشاء ، لا تستقر على أية حالة . فبقيت في مكانى ذاهلا من هذا الفصل المضحك أسائل نفسي عمن فقد وعيه منا أهو أم أنا ...

وسرعان ما توقف عن الرقص وتقدم وانحنى للتحية كأنه أحد الممثلين البارعين فوق المرسح ، ثم ارتد خطوات الى الوراء وقد ارتسمت على محياه ابتسامات تعبر عن قلبه الساذج ، وأشار بيده نحو صف الأشجار الجميلة

وبعد ذلك استأنف خطاه باهتمام، ومنذ ذلك اليوم لم أتخلف عن هذه الحديقة قط لأشاهد تمثيله العجيب حيث كان لا ينقطع عن تمرينه الخاص صباح كل يوم ، وقد حفزتني الرغبة للتعارف به ، فاندفعت إليه بالتحية قائلا أنه ليوم سعيد يا سيدى ، فرد على التحية قائلا أجل أنه ليوم سعيد حقاً ، ومنذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين وفيين ، وعرفت قصته فقد كان الراقص الأول في الأوبرا منذ عهد لويس الخامس عشر ؛ وعصاه الجميلة كانت هبة من الكونت دى كليرمونت ، وكان عندما يتحدث عن الرقص تغمره النشوة والفرح .

وذات يوم أسر لى حاجة في نفسه ، قال . — لقد تزوجت لا كاستريس وسأحضرها معي كي تراها إذا رغبت في ذلك ، فهي لا تأتى مبكرة الى هذا المكان ، وهذه الحديقة التي تتمتع برؤيتها هي مبعث أمانينا ووحي ذكرياتنا ، وهي حديقة بعيدة العهد قل أن تشابهها حديقة أخرى .

وكثيراً ما كنت أتردد وزوجي إلى ذلك المكان في وقت الظهيرة يومياً، وفي يوم من الأيام نهضت باكراً ، وأخذت أتجول من مكان إلى آخر ومن شارع إلى شارع ، إلى أن حان وقت الظهيرة، فاستأنفت العودة إلى الحديقة المعهودة حيث الجو ثمل حافل بالرقص والسرور فرأيت الحبيبين العاشقين ، امرأة مسنة ترتدى ثيابا سوداء ، وصديق الحب الذى كان له اليد الطولى في ذلك الاحتفال المهيب . وكانت تلك الراقصة لا كاستريس حيث كانت حاذقة بفن الرقص ، فهي عشيقة الملك وعطية الأمير .

وما إن انتهى ذلك الاحتفال اتخذنا مقعداً فوق غصن شجرة جميلة ، وكان الفصل ربيعاً ، لقد هب النسيم على الغصون مشبعاً بروائح الزهور العطرة ، وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية لتحيي تلك الزهور ، وقد انعكست أشعتها فوق ما يظللنا من أوراق الشجر نافذة من خلالها إلى دوائر صغيرة ، بينما ثوب لا كاستريس الأسود قد تحول إلى بريق شديد حيث الجو هادىء والحديقة خالية وصوت العربات يسمع باستمرار .

قلت للراقص الأول .

ألا توضح لى شيئا عن هذا الاحتفال؟

فقال : — الاحتفال هو ملكة الرقص ورقص الملكات ، أما تعلم أن الرقص قد فقد بهاءه وجماله منذ ذلك الحين ... وصار يتمتم بعبارات غامضة لم أفهم شيئا منها . وقد اضطرب في وضعه ، ونزل عن الغصن وسارت أمامه عشيقته لا كاستريس ، فحدقت ببصرى إليهما ، وأنا مضطرب النهى فاقــد الاحساس والشعور ، فاعترانى الحزن لمنظر ذلك الشبح الحزن ، وسبحت في فكر عميق .

فاستمرا واقفين لحظات ، وقد أتما دورة الرقص ، وأخيراً ابتسما ابتسامتهما المعروفة ، وتعانقا عناقا حاراً ، وتنهدا تنهدات عميقة ، ثم فارقتهما .

وغادرت المدينة بعد ثلاثة أيام ، ولم أعد أراهما ، فرجعت إلى باريس بعد سنين ورأيت الحديقة وقد خيم عليها الذبول ، وساءلت نفسي عن حالة هذين الزوجين الحبيبين وما كان من أمرهما بعد ذبول تلك الحديقة الغناء، هل توفيا أم لا يزالان على قيد الحياة، وهل يرقصان في مكانهما المعهود؟ ...

لقد عاودتني تلك الذكرى ، واستقرت جروحها في فؤادى، وإني لأرى فيها أغواراً عميقة لمآسي الروح التي تعبر عن خلجات نفسي ، عرفت الحياة وآمنت بأنها متاع الغرور ، وكيف ! ...

لا أستطيع القول ، ستجده مضحكا جداً بلا ريب . .

زكريا أحمد قليبو
مدرس ومدير مدرسة المسكة بفلسطين

أقصوصة رمزية:

الليــــل ..!

للأستاذ عبد العزيز خانقاه

إرتمد الطفل خائفاً مذعوراً ، فالتصق بصدر أمه الحنون ..
فكان معجزة حدثت فأنطقته :

— اماه ! إنني خائف ..

فأجابت الأم :

— ليس هناك ما يدعو الى الأرتياع ياصغيرى ..

— وما هذا الصوت الرهيب الذى ينبعث من بعيد ؟

— انه نباح كلاب وعواء ذئاب ! !

— ولم تعوى فى مثل هذا الوقت ؟

— شراسة وجوعاً ... ثم ياحبيبي ! !

— ألا تعوى فى غير هذا الوقت ؟

— فى الليل غالباً ...

— وفى النهار ؟

— قلما ...

-- عجباً ! ! أتعلمين ياأمى العزيزة الأسباب ؟

— نحن الآن فى جوف الليل ... والظلام مخيم .. فلم ..

— ولم ينطلق العواء البعيد من الكلاب والذئاب ليلا ..؟
ها أنذا أسمعه .. انه مفزع يا أماه ! ! أليس كذلك ؟

— بلى .. وان ضوء النهار الرائق يخنق الأصوات الناشزة القذرة ..

وفى الليل حين يتلبد الجو بمآثم خانقة ، ويهبط القتام .. وتعمى البصائر ووتر فظيع يصيب آذانها ، فيحلو لمثل تلك الخلوقات البغيضة أن تنبح وتعوى وتطلق صراخها المزعج ..

— وهل تأكلنا إذا خرجنا إليها ؟

— أجل .. بعد ما تنشر فى السكون المطلع وتبذره فى القلوب وتزرع فى النفوس القلق والزعزعة ، عند ذاك ... من الأفضل أن ترقد ياولدى !

والطفل كان فاغر الفم ، جاحظ العين ، يرمق فى لهفة شديدة ، أمه وهي مسترسلة فى حديثهـــا وحين كفت منه . . . عاد إلى تساؤله بقلب أكثر اصراراً فقال :

— ليس يأتينى الرقاد ، فالخوف قد زال بعضه من نفسى ، فحدثينى ياأماه هـــذا الحديث الشيق ! كلما جن الليل ، بل اعيديه على مسامعى ، فذلك خير وأولى من الاستغراق فى النوم اللذيذ !

فضمت الأم وليدها إلى صدرها ، تمطره قبلا خالصات طافحات بالأعجاب . فقالت :

— بورك فيك ، يا بطلى الصغير . فاسمعنى ، وإليك بقية الحديث ...

— كلى آذان ، فأنا مصغ بكليتى ...

— أجل .. عندما تتزعزع تلك النفوس يلج فيها الأنهيار والشلل ، فتنكفئ على وجوههـا عائدة ، تلوذ بالهزيمة ؛ وهى فى منتصف الطريق فلا تلبث ان يغتالها الأعياء ويأكلها الهلع ... فتقبل الذئاب الضارية والكلاب العابثة الجائعة فتلتهمها وتأتى عليها فى هنيهات من الزمن قصار ..

— ولكن .. أليس هناك من يقارعهـا ويناصبها العداء ويقف فى وجه الزوبعة ؟

— بلى ، يافلذة الكبد .. بيد أن البعض منهم قد دنت آجالهم فلقوا حتفهم ، فضمتهم الأكفان والبعض الآخر مازال يصارع فى بطولة بقوة وبطش ولـكنهم .. !

اراك ياأماه ، ركنت مرة أخرى إلى السكوت .. ولكن ماذا ؟ ..

— انهم يرتقبون إنجلاء الليل .. لتزول هذه الغمة ..

ـ وهل لا نزال فى الليل .. ؟

ـ نعم .. إنه ليل طويل ..

ـ وهل لا ينجلى هذا الليل الكريه الأسود ؟

ـ كيف لا يابنى ؟ فكل ليل يطل عليه فجر منير ويغمر السكون من بعده ، نهار مشرق ، عبق الشذى ! ؟

ـ ومتى ذلك ياأماه ؟ أنى لفى شوق إليه لجوج ...

ـ صبراً ... ثم ياصغيرى ..

ـ لا ، لا ، لن أنام ، سأرتقب ذلك الفجر ياأماه ! !

عراق — كركوك عبد العزيز خانقاه